العدد 12A مجلة دراسات في الإنسانيات والعلوم التربوية شبـــاط 2026
No. 12A Journal of Studies in Humanities and Educational Sciences February 2026
Print ISSN 3006-3256 Online ISSN 3006-3264

بين السيف والموقف :موسى بن ابي غسان ومفهوم المقاومة في الاندلس

م.م الاء محمود رحيم خليل
رئاسة جامعة ديالى /قسم شؤون الطلبة
Alaa.mahmoud.raheem@uodiyala.edu.iq.

الملخص

تتناول هذه المقالة السياق السياسي والعسكري الذي أحاط بسقوط غرناطة في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، في ظل حصار طويل قادته مملكتا قشتالة وأراغون بقيادة إيزابيلا الأولى وفرناندو الثاني. وتعرض الدراسة مواقف الأطراف المختلفة داخل المجتمع الغرناطي، مع التركيز على شخصية القائد موسى بن أبي غسان بوصفه ممثلًا لتيار المقاومة. كما تحلل المقالة الخطب والرسائل المنسوبة إليه، وتناقش مدى تاريخيتها، مع مقارنة الروايات المتعددة التي وردت في المصادر المتأخرة. وتبيّن الدراسة أن صورته ارتبطت في الذاكرة التاريخية بمعاني الشجاعة والتمسك بالسيادة، سواء ثبتت جميع التفاصيل المنقولة عنه أم كانت بعض عناصرها ذات طابع أدبي رمزي . وتخلص المقالة إلى أن موسى بن أبي غسان شكّل رمزًا للموقف الرافض للتنازل في اللحظات المصيرية، وأن حضوره في السرديات التاريخية يعكس الصراع بين الواقعية السياسية والمقاومة المبدئية في أواخر العهد الأندلسي.

الكلمات المفتاحية : السيف والموقف .موسى بن ابي غسان .مملكة غرناطة

Between the sword and the stance: Musa ibn Abi Ghassan and the concept of resistance in Andalusia

Alaa Mahmoud Raheem Khalil
Presidency of Diyala University / Student Affairs Department
Alaa.mahmoud.raheem@uodiyala.edu.iq

Abstract

This article examines the political and military context surrounding the fall of Granada in the late 15th century, following a prolonged siege by the kingdoms of Castile and Aragon under Isabella I and Ferdinand II. The study explores the positions of various factions within Granadan society, focusing on the figure of Musa ibn Abi Ghassan as a representative of the resistance movement. The article analyzes the speeches and letters attributed to him, discussing their historicity and comparing the various accounts found in later sources. It demonstrates that his image is associated in historical memory with courage and a commitment to sovereignty, regardless of whether all the details attributed to him are authentic or if some elements are of a symbolic or literary nature. The article concludes that Musa ibn Abi Ghassan became a symbol of unwavering resistance in critical moments, and that his presence in historical narratives reflects the conflict between political pragmatism and principled resistance in the late Andalusian period.

Keywords: The sword and the stance. Musa ibn Abi Ghassan. The Kingdom of Granada.

المقدمة

تُمثّل شخصية موسى بن أبي غسان إحدى الشخصيات المرتبطة بالمرحلة الأخيرة من تاريخ الأندلس، ولا سيما في سياق سقوط غرناطة سنة 897هـ/1492م. وقد ارتبط اسمه بالموقف الرافض للتسليم، وبالخطب التي دعت إلى مواصلة المقاومة في وجه القوات القشتالية. وتنبع أهمية دراسة هذه الشخصية من كونها تعكس طبيعة الانقسام الداخلي الذي شهدته غرناطة في أيامها الأخيرة بين دعاة الصمود وأنصار المهادنة.

تهدف هذه المقالة إلى تحليل شخصية موسى بن أبي غسان من منظور تاريخي نقدي، من خلال تتبّع الروايات التي تناولته في المصادر العربية والإسبانية، ومناقشة مدى توثيقها، مع إبراز الدلالات الفكرية والسياسية التي حملتها مواقفه في سياق التحوّل التاريخي الذي أنهى الحكم الإسلامي في الأندلس .

المبحث الاول: الاوضاع السياسية والعسكرية في الاندلس في فترة بروز شخصية موسى بن ابي غسان :

كانت الاوضاع السياسية التي تعيشها الاندلس في المرحلة التي برزت فيها شخصية موسى بن ابي غسان تمتاز بحالة الانقسام السياسي وضعف السلطة المركزية فضلا عن ضعف القدرة الدفاعية للدولة ،فضلا عن الضغوطات والحروب المستمرة بين ممالك الاندلس والممالك النصرانية ،بالإضافة الى الخلافات الداخلية والصراع على السلطة ،وانعكاس هذه الظروف سياسيا وعسكريا على المدن الاندلسية ومن ضمنها مدينة غرناطة ،فقد كانت مدينة غرناطة تعاني من ضعف السلطة المركزية ورغم محاولات بعض السلاطين لتوحيد المملكة واصلاح الادارة ،فقد كان الاعتماد على الدعم القبلي المحلي وعلى نفوذ العشائر العربية وغير العربية مما اضعف من قوة الدولة في مواجهة الممالك النصرانية ،وكذلك فقد كانت للصراعات الداخلية والمؤامرات دورها في ضعف الممالك الاسلامية في الاندلس ،فقد شهدت غرناطة انقسامات داخلية بين الامراء والوزراء والعلماء ،وكذلك التنافس على الحكم والسلطة بين الامراء من اسرة بني الاحمر ،مما ادى الى اضعاف الوحدة السياسية للمملكة ،كذلك فقد استغلت الممالك النصرانية التوترات والصراعات بين امراء الاسرة الحاكمة في الممالك الاسلامية ،ونجحت في تحييد بعض الجهات داخليا ،فضلا عن تمكنها من استغلال حالة الضعف والانقسام وتمكنها من السيطرة على بعض الممالك الاسلامية ،وفي الوقت نفسه كانت الممالك النصرانية تتحالف فيما بينها مثل عقد مملكتي قشتالة واراغون عدة تحالفات مع بعض الدول النصرانية ،مما ادى الى تعزيز قوتها وقدرتها العسكرية والسياسية ،فضلا عن الاوضاع الاقتصادية للممالك الاسلامية فقد كالت تعيش اوضاعا متدهورة نتيجة الحروب المستمرة وفقدان السيطرة على الاراضي الزراعية الخصبة ،فضلا عن هروب التجار والحرفيين الى الشمال الافريقي بحثا عن الامان نتيجة تدهور الاوضاع السياسية في الاندلس فكانت الممالك الاسلامية تعيش حالة من الضغوط المالية نتيجة لتمويل نفقات الحملات العسكرية المستمرة ،مما اثر سلبا على الطبقات العاملة في المجتمع ،واضعف قدرة الممالك على دعم جيوشها نتيجة الحروب والهزائم المتكررة .وفي اواخر القرن الخامس عشر الميلادي اتحدت مملكتي قشتالة واراغون تحت تاجي فرناندو وازابيلا ،وبدوا بشن حملات مستمرة ومنظمة وكانت بدعم ومساندة من السلطات الدينية المسيحية ،و بدأت هذه الحملات في السيطرة على الممالك الاسلامية فتمكنوا من السيطرة على مملكة اشبيلية وغيرها من الممالك حتى وصلوا الى مملكة غرناطة التي كانت اخر معاقل المسلمين في الاندلس .

المبحث الثاني :السيرة الشخصية لموسى بن ابي غسان :

اولا: اسمه ونسبه :هو موسى بن ابي غسان لم تذكر المصادر أي لقب او كنيه له ،ولم تذكر نسبه ايضا ،فقد اشار الوزير محمد بن عبد الوهاب الغساني في رحلته الى ان هناك من يدعى بان موسى هو اخو السلطان

حسن المتغلب عليه بغرناطة غير ان الروايات العربية المعاصرة لا تذكر لنا ان السلطان ابا الحسن كان له اخ بهذا الاسم .

ثانيا :اصله ونشاته : كان موسى بن ابي غسان سليل احدى الاسر العريقة التي تتصل ببيت الملك .اما عن نشأته فقد نشا في احدى الأصول العربية القديمة التي عرفت برائع فروستها وعميق بغضها للنصارى ،والتي كانت ترى الموت خيرا الف مرة من ان يصبح الوطن العزيز مهادا للكفرة ،ولم يكن بين امجاد غرناطة يومئذ من هو ابرع من موسى في الطعان والفروسية فقد كان شابا بعيد الهمة كريم السجية ،ابي النفس باهر القوة مستوفيا شروط الفتوة ،جامعا بين صباحة الوجه وضبارة الخلق (مجتمع الخلق وثيقه)،غاية في بهاء الطلعة ونفاذ العزيمة ،حدا في عزة النفس وزكاء الطبع ،كان لا يوجد ادرب منه في عصره بفنون الفروسية ،ولا احسن منه اقتعادا لصهوات الخيل ،ولا البق ولا ارشق حركة بألعاب السيف والترس ،وتقليب السلاح بأنواعه ،كان اذا برز في ميدان ترك امره فتنه لحسان غرناطة ،ومدارا لحديث الأندلسيات ،واذا شهد الكريهة قذف مشهده الرعب في قلوب الاسبانيول وطالما نصر المسلمون باسمه .

المبحث الثالث : دوره السياسي والعسكري :

كان موسى بن غسان ناقما على السلطان ابي عبد الله هوادته مع النصارى ،ولين جانبه لهم ، وكان يعمل بكل ما وسعه لإذكاء روح الحماسة والجهاد ،وتنظيم الفروسية الغرناطية وتدريبها ،وقيادة السرايا الى اراضي العدو ،ومفاجأة حصونه وحامياته في الانحاء المجاورة .ولما بعث فرناندو الخامس الى ابي عبد الله يطلب منه تسليم الحمراء ،كان موسى من اشد المعارضين في اجابة هذا الطلب المهين ،وكان لعزمه وحماسته اكبر اثر في تطور الموقف ،وحمل الامير والشعب على اعتزام الجهاد والدفاع الى اخر رمق ،فقام هو وتلك الفئه المائلة الى الحرب مستنفرين العامة للجهاد ،مستبلغين في حث الهمم ،وتنشيط العزائم ،وتحذير القوم عواقب الخضوع من فقد الامن على الاعراض والدماء والاموال ،واعمل موسى في الاحتشاد وبالغ في النفير ،فبادرت جمهرة المسلمين الى اجابة داعيه ،وطمعت في استئثار الجنة ،ونفرت فتيان غرناطة تريد الموت في سبيل الذب عن ذمار الدين ،وتطيع من موسى سيدا كانت تغضب له الوفهم اذا غضب ولا يدرون لم غضب فكيف وقد غضب للدين ،ونفر لحماية عرض المؤمنين ،فارسلوا الجواب الى الطاغية قائلين له انهم يفضلون الموت على تسليم مدينتهم ويوعدونه ان شاء الاجلاب بما استطاعوا من قوة ،وكذلك قول موسى المأثور يومئذ :"ليعلم ملك النصارى ان العربي قد ولد للجواد والرمح ،فاذا طمح الى سيوفنا فليكسبها ،وليكسبها غالية .اما انا فخير لي قبر تحت انقاض غرناطة ،في مكان الذي اموت فيه مدافعا عنه ،من افخم قصور نغنمها بالخضوع لأعداء الدين ".فلما ايقن فرديناند بما اجمعوا عليه اطلق الغارات على الاطراف ،وجعل ذلك الى نظر كونت تنديلا قائد ثغر جيان ،وشرع في التأهب والاستعداد للحركة ،وقام موسى بن ابي غسان من الجهة الثانية وقد حف به فتيان سراة غرناطة ،وتبايعوا على الموت تحت لوائه ،ونفرت فرسان المسلمين من كل اوب ،وماجت اسواق غرناطة وساحاتها بالحشود ،وملا الافاق صهيل الخيول ،وموسى زعيم الفروسية المسلمة وروح الجهاد ومحط الآمال ،وقبلة الخواطر وحياة نفوس المثاغرين ،واسمه الرعب المحيق بأقاصي الثغور. فلما اخذ الاسبانيول يشنون الغارات خرج الامير موسى بفرسانه فوالى عليهم الهزائم ،وصارت خيوله وسراياه تعود بالغنائم ،وتدخل غرناطة دخول الظافر ،مما اعاد الى الخواطر القوم ذكر الايام الماضية ،وحدثهم بعود عز الاسلام وايام غلبته على تلك الاقطار ،ومضى شتاء تلك السنة على هذه الحال واقبل الربيع فقال الطاغية علينا ان نجتاح هذه السنة كور غرناطة وفي التي بعدها نهاجم البلد بعد ان يكون قل القوت وانقطع المدد، فحضر بخمسة الاف فارس وعشرين ماش واخذ يكتسح مرج غرناطة البديع النظير المنقطع النظير ومعه امراء بلاده دوق مدينة سيدونية ومركيز قادس ومركيز فيلنه والدون الونزو دواغيلار وغيرهم من رؤوس قوادهم ،فشمل تلك المروج عيثا وتخريبا وبعث النار في جميع ارجائها حتى غطى الدخان الافق ،واظلم جو غرناطة من دخان شجرها ،هذا وابو عبد الله لا يجسر على الخروج من حمرائه خوفا من فتك

العامة به ،لقولهم انه هو سبب هذه المصائب لكن موسى قسم فرسانه الى عدة كتائب وعقد على كل كتيبة لواحد من القادة ،واطلق الغارات على اطراف معسكر الاسبانيول ،فابلغ فيهم النكاية ،وربما عمد لكثرة حشودهم الى الخدعة والمكيدة احيانا ،ففي احدى المرات بينما كانت قطعة من الجيش الاسبانيولي سائرة في سفح جبل ،اذ التقت بجماعة من المغاربة تقهقروا امامهم ،فطمعت فيهم حتى نشبت بين الصخور فاندفع عليهم المغاربة من وراء الجندل (المكان كثير الحجارة)فاستلحم الاسبانيول ،وفر منهم جماعة ،وصبرت جماعة بقيت تقاتل في ارضها ،واذا بخيل الاسلام قد اطلت منقضة انقضاض العقبان ،فحصلت في وسط الاسبانيول ، وحمي الوطيس، وكان مركيز فيلنه واخوه الدون الونزو دو بشيكو في وسط المعمعة، فلما علم ان جرح المركيز وخر الدون الونزو صريعا وبجانبه اصطفان دو سوزون من افضل القادة وضاق الخناق بالاسبانيول ،وشاهد الملك ان النصر للمغاربة، وان جماعته هالكون لامحالة فامرهم بالرجوع، فلم يتريثوا في تلبية امره وانسحبوا خاسرين بعد دفاع شديد. ولما رأى فرديناند ان مواجهة المغاربة خصوصا في هذه المناوشات الخاصة، تعود غالبا بالخسران على عسكره اصدر امره الصارم باجتناب القتال معهم، والاعتماد على العيث في بلادهم، واكتساح اراضيهم، واستئصال اسباب القوت، ليأخذ غرناطة بالمجاعة بدل الحرب. وبعد ان لبث الطاغية شهرا كاملا يعيث في مرج غرناطة حتى انخى على نضارته، قفل الى قرطبة من طريق الجبل، فما توارى عن العين حتى نهض ابو عبد الله متقلدا سلاحه، وامتطى جواده ،ونفر واستنفر، فالتفت، عليه فرسان غرناطة وخفت اليه سكان جبل البشرات الموصوفون بشدة البأس ، وماجت ساحات الحضرة بالحشود ، وتبايع الناس على الموت ، وتبارى الفرسان في ميدان النزال ، يتقدمهم الامير موسى بن ابي غسان وهوه روح النهضة وسيف العزيمة . فلما رأى ابو عبد الله من شرفات الحمراء جيوش الطاغية مقبلة ،وقد غطى عجاجها الفضاء وسد الافق ،عقد مجلسا مؤلف من اعيان غرناطة ورؤسائها فاجتمعوا كاسفي البال نادبي سوء الحال وتخوف بعضهم عواقب الحرب من نزول المعرات في بيوتهم ،فأشاروا على ابي عبد الله بتسليم مقاليد امره الى كرم فرينانده املا في ان ذلك يعود بشروط صلح مقبولة وسال الوزير ابو القاسم الملك ان يبين مقادر الباقي من الطعام والذخيرة لأجل الحصار .فأجاب ان الباقي يكفي مؤنة بعضة اشهر ما عدا الذي في مخازن التجار ومنازل الاغنياء لكن أي فائدة من ذلك اذا كان حصار النصارى لا ينتهي ،ثم سال عن عدد المقاتلة ،فأجاب انه عدد عظيم لكنه ماذا ينتظر من جيش معظمه من سكان المدن يرغون و يزبدون في اماكنهم ،حتى اذا دلف اليهم العدو سكنت ثائرتهم وانطفأت جمارتهم .فلما سمع موسى بن ابي غسان هذه الكلمات نهض قائلا :"أي باعث بنا الى اليأس ؛فان دم الابطال من عرب الاندلس فاتحي هذه الديار يجري في عروقنا ،وعندنا قوة وافرة وجيوش متعودة مجربة في الوقائع لا نرتاب في اقدامها ،اذ لدينا عشرون الف شاب يمكنهم ان يدافعوا عن دورهم واسوارهم اعظم قوة واكثف جيش ،فأما الطعام فلا نحتار في امره ،ولدينا عقبان من الجياد المسومة نطير بها الى ديار المدجنين الذين استسلموا للنصارى والى بلاد العدو فنعود بالغنائم والانفال " .فثبت كلام موسى عزائم القوم ووطنهم على الدفاع وتوزعت القيادة فعهد الى الوزير ابي القاسم بتجنيد الاجناد وتفريق المؤنة والسلاح والى الامير موسى بقيادة الخيالة وحفظ ابواب المدينة والمهاجمة ومعه نعيم رضوان ومحمد بن زاهدة وقيل زائدة ،والى عبد الكريم الزغبي وقيادة اخرين بالمحافظة على الاسوار ،والى قواد القصبة وابراج الحمر بالدفاع عن الحصون .واخذ الغرناطيون بالتأهب للجهاد ،فلم يكن يسمع الا قرع الطبول ،وسليل اسنة وصهيل الخيول ،وانتظمت الفرسان بقيادة موسى ككواكب يتقدمها شهاب ثاقب ،فكان انجاد الغارة واحلاس القتال يعجبون ببسالته واقدامه ،وكانت العامة تحوم علية هاتفين بالدعاء مهللين ،وكانت طائفة العجزة من الشيوخ والنساء يسلمون علية ويباركونه معتقدين انه حاميهم والجنة الواقية دونهم .ولما قرب النصارى من المدينة احكم المغاربة اقفال الابواب وجعلوا وراءها السدود والسلاسل واوثقوها بالإغلاق المتينة فجاء موسى وامر برفعها كلها قائلا :"قد عهد اليه والى خيالتي حراسة هذه الابواب ،وستكون اجسادنا سدودا من دونها وجعل عند كل باب حرسا وافرا وكانت خيلة دائما حاضرة للنزال ،ومقاتلته على اهبة الاستعداد للحرب ،فاذا دنا العدو انقضت عليه كالصواعق ،ومزقت على هذا النحو صفوف من النصارى .وكان موسى يقول لفرسانه "لم يبقى لنا سوى الارض التي نقف عليها فاذا

فقدناها فقدنا الاسم والوطن ". وفيه يقول الكاتب الشهير واشنطن ايرفينغ "فلو وجد عند الغرناطيين عدة رجال مثل موسى ، او كان ظهوره في بداية هذه الحرب لكان تأجل سقوط مدينة غرناطة وبقي المسلمون مدة مديدة بعد ذلك متبوئين ابراج الحمراء " فبعد ان نظر فريناند الى حالة غرناطة ومن فيها من جموع المسلمين المنضوية اليها من سائر الاندلس تغلي في صدورهم الاوثار غلي النار في المراجل ،وفيهم من ذؤبان الرجال ،وابطال النزال عدد يفوق الاحصاء فرأى ان اخذ هذه البلد بالسيف من قبيل الاحلام ،واعتمد ان يأخذها بالحصر والتضييق كما اخذ مدينة بسطة ،فقطع عنها المدد واجتاح جبال البشرات ،وصار يقبض على كل قافلة نازلة صوب غرناطة ،فكان موسى يشن الغارة في خيله على معسكر ،فيغنم ويفتك ويعود بالسلب ،فامر الملك اتقاء غارات موسى بحفر خنادق واقامة اسداد حول المخيم ،وجعل المخيم اقساما اربعة على شكل مربع وبينها الاسواق والدكاكين .وبعد ان تم ذلك على هذا المنوال استدعى امراته الملكة ايزبيلا فحضرت بأولادها واقامت معه ،وذلك دهاء منه لقطع امال الغرناطيين من الرحيل عنهم ،حتى يمكنوا من بلدتهم وكان لقدومها في المعسكر ضجة فرح عظيمة اما المغاربة فلم ترتخ عزائمهم بذلك ،فقال لهم موسى "ان علينا الدفاع عن الارض التي تحت اقدامنا لأنه اذا لم يبق لنا ذهب ملكنا ومحيت اسماؤنا ". ولما رأى موسى ان الملك فريناند لا يناوشهم القتال منتظرا تسليم البلد بالحصر والتضييق وقطع الميرة ،اخذ يرسل فرسانه لمبارزة فرسان النصارى قرنا لقرن ،فلم يكن يمضي يوم الا ويقع فيه عدة مبارزات بين شبان الطائفتين ،فرأى فريناند ان هذه المصارعات الشخصية قد اثارت جأش المغاربة ،وقوت عزائمهم وافقدته عددا من فرسانه ،فامر جيشه بعدم قبول المبارزة فعيرهم المسلمون بذلك ،فلم يخالفوا امر الملك ،ولما رأى المغاربة اصطفاف جيش الاسبانيول كأنما يريدون القتال راوا انه من الذل الاحجام عن مناجزتهم حتى شوهدت سرية من فرسان غرناطة قد خرجت من المدينة بالعدد الكامل والاسنة الامعه وهم فرسان موسى بن ابي غسان فاصدر الملك امرا لاجتناب القتال معهم لأنه اراد ان يتجنب اراقت دماء جيشه ،فالتزم المركيز السكون ولم يعلم المغاربة السبب في ذلك فبدوا بدعوة النصارى الى النزال والملك يمنع قومه من الاجابة ،والح بعض الفرسان المسلمين حتى خرج من بين الفرسان فارس يدعى طرفة ذكر النصارى انه اهان ملكتهم ،فلما راوا النصارى هذه الاهانة فقدوا صوابهم وضاع رشدهم واسرع احد قادتهم وهو كارسيلاسو فاستأذن من الملك للنزال فأذن له فعاد كارسيلاسو وتقلد سيفه ،وامتطى حصانه ، ونزل لمبارزة الفارس المغربي فتساور القرنان ،وضل الفارس النصراني يتقى ضربات الفارس المغربي حتى تمكن من قتل الفارس المغربي، وعندما رأى المغاربة سقوط فارسهم امر موسى بن غسان بقطعتين من مدافعه فأخذتا ترميان النار على صفوف الاسبانيول فاختل مصافهم فقال موسى لرؤساء جنده عليكم بالمهاجمة ولا نضيع الوقت في المبارزات الشخصية ثم وثب كالغضنفر الطاوي وتبعه جماعة من خيل ورجال وهجموا على صفوف النصارى فشطروهم واوقعوا بهم ،فقرر المركيز عدم اطاعة امر الملك ،وبدا بالقتال واستحر الضرب والطعن من كل الجهات، وعلى الرغم من محاولات واجتهاد موسى كثيرا مع خيالته في ضم شملهم فلم يفلح وانتهت هذه المناوشة التي سميت مناوشة الملكة بهزيمة المسلمين وانسحابهم الى الجبال . واخيرا رأى ملك قشتالة ان يزحف بقواته على اسوار المدينة ،فخرج المسلمون الى لقائه وعلى راسهم ابو عبد الله وموسى ،ونشبت بين الفريقين في فحص غرناطة عدة معارك دموية ،وكان الفرسان المسلمون وعلى راسهم موسى روح المعركة وقوامها ،وكان ابو عبد الله يقود الحرس الملكي ،وكان القتال رائع خضب فيه كل شبر من الارض بدماء الفريقين ،ولكن المشاة المسلمين كانوا ضعفاء لا يعتمد عليهم فمزقوا بسرعة ،وتبعهم فرسان الحرس الملكي الى ابواب المدينة وعلى راسهم ابو عبد الله ،وعبثا حاول موسى ان يجمع شمل الجند ،وان يدعوهم للذود عن أوطانهم ونساءهم وكل ما هو مقدس لديهم ، والفا نفسه وحيدا في الميدان مع فرسانه المخلصين ،وقد تضائل عددهم واثخن الباقون منهم جرحا ،فاضطر عندئذ ان يرتد الى المدينة وهو يرتجف غضبا ويأسا .وهنا اوصد المسلمون ابواب المدينة وامتنعوا بأسوارها جزعيين مكتئبين ،يرون شبة النهاية المحتومة ماثلا ،فلم تبقى سوى ايام او اسابيع قلائل ،حتى يصبح سقوط الوطن العزيز في يد العدو امرا واقعا ،حتى تصبح انفسهم واموالهم وحرياتهم ودينهم رهنا في يد القدر .وكان قد مضى على حصار غرناطة منذ

بدا الربيع حتى دخول الشتاء زهاء سبعة اشهر ،والمسلمون يغالبون اهوال الحصار، وتتفاقم محنهم شيئا فشيئا .فلم جاءت خاتمت المعارك مبدد لكل امل في الانقاذ ،واشتد فتك الجوع والحرمان والمرض ،ودب اليأس الى قلوب الناس جميعا ،لم يبقى مناص من اعادة النظر في الموقف. فدعا ابو عبد الله مجلسا من كبار الجند والفقهاء والاعيان ،فاجتمعوا في بهو الحمراء الكبرى (بهو قمارش)،واليأس باد في وجههم ،وشرح لهم ابو القاسم عبد الملك كيف وصل الخطب الى ذروته ،فهلكت انجاد الفرسان ، وخبت قوة الدفاع ،ونضبت الاقوات والمؤنة ، واشتد البلاء بالناس ،وغاض كل امل في تلقي الامداد من عدوة المغرب .وصرح (الجماعة)بان الشعب لا يقوى بعد على تحمل ويلات الدفاع ،وانه لم يبقى سوى التسليم او الموت .واتفق الجميع على وجوب التسليم .ولم يرتفع بالاعتراض سوى صوت واحد هو صوت موسى بن ابي غسان ،فقد حاول كعادته ان يثبت بكلماته الملتهبة قبسا اخيرا من الحماس ؛وكان مما قال :"لم تنضب كل مواردنا بعد ،فما زال لنا مورد هائلة للقوة كثيرا مما ادى المعجزات :ذلك هو يأسا ،فلنعمل على اثارت الشعب ،ولنضع السلاح في يده ،ولنقاتل العدو حتى اخر نسمة ،وانه لخير لي ان احصى بين الذين ماتوا دفاعا عن غرناطة ،من ان احصى بيت الذين شهدوا تسليمها ".

المبحث الرابع : الاتفاق على تسليم غرناطة ونهاية موسى بن ابي غسان واستشهاده :

تذكر الروايات انه حينما اجتمع الزعماء في بهو الحمراء الكبير ،ليوقعوا عهد التسليم ،وليحكموا على دولتهم بالذهاب ،وعلى امتهم بالفناء والمحو ،عندئذ لم يملك كثير منهم نفسه من البكاء والعويل .ولكن موسى لبث وحده صامتا عابسا وقال :"اتركوا العويل للنساء والاطفال ،فنحن رجال لنا قلوب لم تخلق لإرسال الدمع ولكن لتقطر الدماء ،واني لأرى روح الشعب قد خبت حتى ليستحيل علينا ان ننقذ غرناطة ؛ولكن ما زال ثمة بديل للنفوس النبيلة .ذلك هو موت مجيد ،فلنمت دفاعا عن حرياتنا وانتقاما لمصائب غرناطة ،وسوف تحتضن امنا الغبراء ابناءها احرارا من اغلال الفاتح وعسفه ،ولئن لم يظفر احدنا بقبر يستر رفاته ،فانه لن يعدم سماء تغطيه ،وحاشا لله ان يقال ان اشراف غرناطة خافوا ان يموتوا دفاعا عنها " ثم صمت موسى ،وساد المجلس سكون الموت ،وسرح ابو عبد الله البصر حوله ،فاذا اليأس ماثل في تلك الوجوه التي اضناها الالم ،واذا كل عزم قد غاض في تلك القلوب الكسيرة الدامية .عندئذ صاح (الله اكبر لا اله الا الله ،محمد رسول الله ،ولا راد لقضاء الله .تالله لقد كتب على ان اكون شقيا ،وان يذهب الملك على يدي)وصاح الوزراء والفقهاء على اثره (الله اكبر ولا راد لقضاء الله)،وكرروا جميعا انها ارادة الله ولتكن ،وانه لا مفر من قضائه ولا مهرب ،وان شروط ملك النصارى افضل ما يمكن الحصول عليه .فلما رأى موسى ان اعتراضه عبث لا يجدي وان الجميع قد اخذ فعلا قراره في توقيع صك التسليم ،نهض مغضبا وصاح :"لا تخدعوا انفسكم ،ولا تظنوا النصارى سيوفون بعهدهم ،ولا تركنوا الى شهامة ملكهم .ان الموت اقل ما نخشى ،فأمامنا نهب مدننا وتدميرها ،وتدنيس مساجدنا ،وتخريب بيوتنا وهتك نسائنا وبناتنا ؛وامامنا الجوز الفاحش ،والتعصب الوحشي ،والسياط والاغلال ،وامامنا السجون والانطاع والمحارق .هذا ما سوف نعاني من مصائب وعسف ،وهذا ما سوف تراه على الاقل تلك النفوس الوضيعة ،التي تخشى الان الموت الشريف .اما انا فو الله لن اراه " وقال :

اذا لم يكن من الموت بد فمن العار ان تموت جبانا

ثم غادر المجلس واخترق بهو الاسود (كورة السباع)عابسا حزينا ،وجاز الى ابهاء الحمراء الخارجية ،دون ان يرمق احدا او يفوه بكلمة ،ثم ذهب الى داره وغطى نفسه بسلاحه ،واقتعد غارب جواده المحبوب ،واخترق شوارع غرناطة ،حتى غادرها من باب البيرة ،ولم يراه انسان او يسمع به بعد ذلك قط .هذا ما تقوله الرواية القشتالية عن نهاية موسى بن ابي غسان .ولكن مؤرخا اسبانيا قديما هو القس انطونيو اجابيدا يحاول ان يلقي ضياء على مصيره فيقول ان سرية من فرسان النصارى تبلغ نحو الخمسة عشر ،التقت في ذلك المساء بعينه ،على ضفة نهر شنيل بفارس مسلم قد دججه السلاح من راسه الى قدمه ،وكان مغلقا خوذته

شاهرا رمحه ،وكان جواده غارقا مثله في رداء من الصلب .فلما راوه مقبلا عليهم طلبوا اليه ان يقف ويعرف بنفسه ،فلم يجب الفارس المسلم ،ولكنه وثب الى وسطهم وطعن احدهم برمحه وانتزعه عن سرجه فالقاه الى الارض ،ثم انقض على الباقين يثخن فيهم طعانا ،وكانت ضرباته ثائرة قاتله ،وكانه لم يشعر بما اثخنه من جراح ،ولم يرد الا ان يقتل وان يسيل الدم ،وكانه انما يقاتل للانتقام فقط ،وكأنما يتوق الى ان يقتل دون ان يعيش لينعم بظفره .وهكذا لبث يبطش بالفرسان النصارى حتى افنى معظمهم ،غير انه اصيب في النهاية بجرح خطر ،ثم سقط جواده من تحته بطعنة اخرى ،فسقط الى الارض ،ولكنه ركع على ركبتيه واستل خنجره ،واخذ يناضل عن نفسه .فلم رأى ان القوة قد نضبت ،ولم يرد ان يقطع اسيرا في يد خصومه ،ارتد الى ما ورائه بوثبة اخيرة ،والقى بنفسه الى مياة النهر ،فابتلعته لفورة ،ودفعه سلاحه الثقيل الى الاعماق .يقول الرواية المذكور ،ان هذا الفارس الملثم هو موسى بن ابي غسان ،وان بعض العرب المتنصرين في المعسكر الاسباني ،عرفوا جواده المقتول ،وهي رواية لا باس بها ،غير ان الحقيقة لم تعرف قط .وهكذا فان موسى بن ابي غسان كان من ابرز الفرسان الانجاد الذي فضل الموت على الاستكانة والعيش في ظل سلطة نصرانية ،الموت في مدافعها وصيانه المجتمع المسلم ،مثالا حيا على ان الموت شهيدا يورث الحياة الكريمة في الدنيا والسعادة في الاخرة، وبقي موسى مثال الفروسية الايمانية التي لا تعرف الاستسلام ،بل تعرف جيدا كيف تخدم مجتمعها المسلم وتبقى على وفائها ،تموت من اجل ما امنت به واعتبرت نفسها بدون صفة رسمية مسؤولة عن رعايته ومستعدة للموت من اجل الحفاظ عليه .

الخاتمة

تؤكد الدراسة أن شخصية موسى بن أبي غسان، بصرف النظر عن درجة توثيق تفاصيل سيرته، تمثل نموذجًا تعبيريًا عن الوعي الجمعي في مرحلة الانهيار السياسي. فقد جاءت مواقفه – كما توردها المصادر – انعكاسًا لحالة التوتر والاختلاف داخل المجتمع الغرناطي قبيل سقوط المدينة.

وتبرز أهمية إعادة قراءة هذه الشخصية في ضوء النقد التاريخي للمصادر، مع مراعاة البعد الرمزي الذي اكتسبته في الكتابات اللاحقة. فموسى بن أبي غسان لا يُفهم فقط كشخصية تاريخية، بل كرمز ثقافي يختزل مأساة الأندلس وصراعها الأخير بين خيار المقاومة وخيار التسليم، وهو ما يمنح دراسته قيمة علمية وفكرية في فهم التحولات الكبرى في التاريخ الإسلامي بالأندلس.

المصادر والمراجع

1- ارسلان ،شكيب ،خلاصة تاريخ الاندلس ،دار ومكتبة الحياة ،(بيروت -1403هـ/1983م).

2- ايرفينغ ،واشنطن ،اخبار سقوط غرناطة ،ترجمة :هاني يحيى نصري ،مؤسسة الانتشار العربي ،(بيروت -1421هـ/2000م).

3- الحجي ،عبد الرحمن علي ،هجرة علماء الاندلس لدى سقوط غرناطة (ظروفها واثارها)،المجمع الثقافي ،(ابو ظبي -1424هـ/2003م).

4- الذنون ،عبد الحكيم ،افاق غرناطة ،د. دار نشر ،(د.م ـ د.ت).

5- السامرائي ،خليل ابراهيم واخرون ،دار الكتاب الجديد المتحدة ،(بيروت -1421هـ/2000م).

6- الصلابي ،علي محمد محمد ،دولة الموحدين ،دار البيارق للنشر ،(عمان ـ د.ت).

7- عبد القادر ،بو حسون ،الاندلس في عهد بني الاحمر دارسة تاريخية وثقافية (635-897هـ/1238-1492م)،اطروحة دكتوراه غير منشورة ، جامعة ابي بكر بلقايد - تلمسان ، كلية العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية - 1434هـ/2013م).

8- عنان ،محمد عبدالله ،دولة الاسلام في الاندلس ،مكتبة الخانجي ،(القاهرة - 1417هـ/1997م).

9- مؤلف مجهول ،نبذة العصر في اخبار ملوك بني نصر ،مكتبة الثقافة الدينية ،(القاهرة - د.ت).

10- مصطفى ،شاكر ،الاندلس في التاريخ ،منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية ،(دمشق - 1410- 1990م).